

سورة النور

معاني الكلمات :

فرضناها : أوجبنا أحكامها .

بينات : واضحات .

رأفة : عطف وحنان .

المحصنات : العفيفات .

يرمون : يتهمون .

لعنة الله : الطرد من رحته .

يدرا : يدفع .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن التشريع لله وحده خالق البشر والكون كله والعالم بها يصلحه ، والحكيم في شرعه .

٢ - أن نعلم أن الحدود شرعت لصيانة الأنساب ولحفظ الأموال والأنفس .

٣ - أن نقف على عقوبة الزنا ، وطريقة اللعان .

المحتوى التربوي :

بإعلان قوى حاسم تبدأ هذه السورة بكل ما فيها من حدود وتكاليف من آداب وأخلاق ، ويدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية ، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية .

ومطلع السورة مطلع فريد في القرآن كله ، الجديد فيه كلمة فرضناها ، والمقصود بها - فيما نعلم - توكيد الأخذ بكل ما في السورة على درجة سواء ، ففرضية الآداب والأخلاق كفرضية الحدود والعقوبات هذه الآداب والأخلاق المذكورة في الفطرة ، والتي ينساها الناس تحت تأثير المغريات والانحرافات ، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات ، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين .

ويتبع هذا المطلع القوى الصريح الجازم ببيان حد الزنا ، وتفطيع هذه الفعلة التى تقطع ما بين فاعليها وبين الأمة المسلمة من وشائج وارتباطات ، والجلد هو حد البكر من الرجال والنساء ، وهو الذى لم يحصن بالزواج ، ويوقع عليه متى كان مسلماً بالغاً عاقلاً حراً ، فأما المحصن وهو من سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم بالغ فحده الرجم ، وقد ثبت الرجم بالسنة وثبت الجلد بالقرآن ، والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم .

ونمضى مع حكمة التشريع فنرى أن عقوبة البكر هى الجلد ، وعقوبة المحصن هى الرجم ؛ ذلك أن الذى سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ قد عرف الطريق النظيف وجربه ، فعدوله عنه إلى الزنا يشى بفساد فطرته وانحرافها ، فهو جدير بتشديد العقوبة ، بخلاف البكر الغفل الغر الذى قد يندفع تحت ضغط الميل ، وهناك فارق آخر فى طبيعة الفعل ، فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر فهو حرى بعقوبة كذلك أشد .

والقرآن يذكر هنا حد البكر وحده فيشدد فى الأخذ به دون تسامح ولا هوادة ، فهى الصرامة فى إقامة الحد ، وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى إقامته تراخيا فى دين وحقه ، وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين فيكون أرجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

ثم يزيد فى تفطيع الفعلة وتبشيعها فيقطع ما بين فاعليها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة ، والذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون ، إنما يكون فى حالة نفسية بعيدة عن الإيمان وعن مشاعر الإيمان ، وبعد ارتكابها لا ترضى النفس المؤمنة أن ترتبط فى نكاح مع نفس خرجت عن الإيمان بتلك الفعلة البشعة ؛ لأنها تنفر من هذا الرباط وتشتمز ، والآية تفيد استبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد ، وتحرم نكاح المؤمن للزانية ما لم تنب ونكاح المؤمنة للزاني كذلك وهو ما أخذ به الإمام أحمد .

والإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرهما إنما ينظمهما ويطهرهما ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ويرقيها حتى تصبح المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية ، والإسلام منهج حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ، إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة ، ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ فى الوحل طائعا غير مضطر ، فالإسلام لا يقيم بناء على العقوبة بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة ، وعلى تهذيب النفوس وتطهير الضمائر وعلى الحساسية التى يثيرها فى القلوب ، والرأفة بالزناة الجناة هو قسوة على الجماعة وعلى الآداب الإنسانية وعلى الضمير البشرى ، وهى رأفة مصطنعة فالله أرفأ بعباده وقد اختار لهم .

وكما قلنا إن الإسلام لا يغنى وحده فى صيانة حياة الجماعة بل يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير الحياة كلها من رائحة الجريمة ، لذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة ، ثم يمضى فى الطريق خطوة أخرى فى استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة

فيعاقب على قذف المحصنات وانها من دون دليل أكيد ، وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم ، شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ؛ ثمانين جلدة مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق ، ويكفى أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشى بينهم متهما لا يوثق له بكلام ، فهو منحرف عن الإيثار خارج عن طريقه المستقيم ، وتظل العقوبات التي توقع على القاذف بعد الحد مصلته فوق رأسه إلا أن يتوب .

ذلك حكم القذف العام ، ولكن استثنى منه أن يقذف الرجل امرأته مطالبته بأن يأتي بأربعة شهداء فيه إرهاب له وإعنات ، والمفروض ألا يقذف الرجل امرأته إلا صادقا لما في ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه ؛ لذلك جعل لهذا النوع من القذف حكم خاص .

وفي هذه النصوص تيسير على الأزواج يناسب دقة الحال وحرص الموقف ، ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته وليس له من شاهد إلا نفسه ، فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق في دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يمينا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد ، فإذا فعل أعطاها قدر مهرها وطلقت منه طليقة بائنة ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم ، ذلك إلا أن ترغب في درء الحد عنها ، فلأنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات أنه كاذب عليها فيما رماها به ، وتحلف يمينا خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقا وهي كاذبة ، بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ، ولا ينسب ولدها إن كانت حاملا إليه بل إليها ، ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد .

قال السيوطي في الإكليل : « في الآية تحريم القذف ، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته ، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أى عفيفة ، ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنا ، لا يحد للقذف ، ويصرح بذلك قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ وفيه أن الزنا لا يقبل فيه إلا أربعة رجال ولا أقل ولا نساء ، وسواء شهداء مجتمعين أو متفرقين .. » .

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ومراعاة الأحوال والظروف بأنه لولا فضل الله ورحمته ، يمثل هذه التيسيرات ، والتوبة بعد مقارفة الذنوب ، ولم يبين ما الذي كان ويكون لولا هذا الفضل ليبقى مرهوبا يتقيه المتقون .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الأحكام الشرعية يجب تنفيذها بدقة وتطبيقها على الوجه الأكمل مع عدم المجاملة أو المحاباة .

٢ - يجب أن تنفذ الحدود على مرأى من الناس حتى يخاف أهل الفجور ، ويكفوا عن ارتكاب الجرائم .

٣ - تحريم رمي المحصنات بالفاحشة ، ويجب الستر على المسلمين والمسلمات .

معاني الكلمات :

الإفك : أقبح الكذب .

عصبة : جماعة .

كبره : معظمه .

مسكم : أصابكم .

أفضتم فيه : تكلمتم فيه بغير علم .

أفواهمكم : ألسنتكم .

بهتان : كذب محير .

تشيع : تنتشر .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نقف على شناعة وبشاعة جريمة القذف وعقوبته في الدنيا والآخرة .

٢ - أن نتعرف على طهارة زوجات النبي ﷺ وشرفهن ، ومكانة السيدة عائشة عند الله وعند رسوله ﷺ .

٣ - أن نعلم كراهة اليهود والمنافقين للإسلام والمسلمين ، وكيدهم للدعوة .

المحتوى التربوي :

بعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجاً من القذف يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ، وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وعرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبي بكر ؓ ، أكرم إنسان على رسول الله ﷺ ، وعرض رجل من الصحابة - صفوان بن المعطل ؓ - يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه إلا خيراً ، وهو يشغل المسلمين في المدينة شهراً من الزمان .

ذلك هو حديث الإفك الذي تناول إلى المرتقى السامى الرفيع ، وحادث الإفك هذا قد كلف أظهر النفوس في تاريخ البشرية كلها ألماً لا تطاق ، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من

أشقى التجارب في تاريخها الطويل ، وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجته عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل شهراً كاملاً ، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها يتعطف الله تعالى على رسوله ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم ، ولقد تجاوز هذا الأمر السيدة عائشة إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها ، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالاته كلها ، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها ، إنها كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبناتها ، من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة ، ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ويكشف الحكمة العليا وراء ذلك كله ، وما يعلمها إلا الله .

والذي جاء بالإفك لم يكن عبد الله بن أبي ابن سلول وحده الذي أطلق ذلك الإفك ، إنما هو الذي تولى معظمه وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهره ، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية ، وكان حادث الإفك إحدى مكائدهم القتالة ، ثم خدع فيها المسلمون ، فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثه ، أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة وعلى رأسها ابن سلول الحذر الماكر .

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث وعمق جذوره ، وما وراءه من عصابة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللثيم ، ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد ، فهو يكشف عن الكائدين للإسلام ، ويكشف عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله ، وهو خير أن يكشف للجماعة المسلمة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

والذين خاضوا الإفك فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة ، ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله ، وبئس ما اكتسبوه ، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم ، ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهده ، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها ، وكان الأولى أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وهذه هي الخطوة الأولى ، أما الثانية ، فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي بالإتيان بأربعة شهداء وإلا كان القذف كذباً وفرية .

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الأمر على القلب واستفسار الضمير ، خطوة التثبيت بالبينة والدليل غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك ، وتركوا الخائفين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ ، وهذا أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم ، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم ، فيأخذوا الكلام بالأسننة بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر ، فيقولوا ما ليس لكم به علم ومحسبوا كذب عرض الرسول ﷺ لا ذنب فيه وهو عظيم عند الله ، وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي نزلته الرواسي ، وتضج منه الأرض والسماء .

وكان الأولى أن تنكر القلوب مجرد سماعه ، وتخرج من مجرد النطق به ، وأن توجه إلى الله تنزهاً عن أن يدع نبيه لمثل هذا ، ويأتى أسلوب التربية المؤثر بالتحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم ، مع تعليق الإيذان على الانتفاع بتلك العظة ، والله يكشف الأمور ويعلم البواطن والنوايا والغايات والأهداف ، ويعلم مداخل القلوب وهو حكيم في علاجها وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها .

ثم يمضي السياق في التعقيب على حديث الإفك ، وما تخلف عنه من آثار ، مكرراً التحذير من مثله ، مذكراً بفضل الله ورحمته ، والذين يرمون المحصنات إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها ، بذلك تشيع الفاحشة في النفوس لتشييع بعد ذلك في الواقع .

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وذلك جانب من منهج التربية وإجراء من إجراءات الوقاية ، يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرهم واتجاهاتها ، ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها ؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها ؟ ومن الذي يرى الظاهر والباطن ، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير .

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته ، فالشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء ، ولكن فضل الله ورحمته ورأفته ورعايته ، ذلك ما وقاهم السوء ، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ، وهو يريهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - ابتلاء الرسول ﷺ واختباره في أعز الناس لديه ، ليكون قدوة في الصبر وتحمل الأذى وحسن التصرف .

٢ - العقاب على قدر الجريمة ، والجزاء على قدر العمل .

٣ - مجتمع المسلم نظيف طاهر وعلى المسلم ألا يفرط في طهارته ويشيع الفاحشة فيه .

معاني الكلمات :

الفحشاء : ما عظم قبحه من الذنوب .

المنكر : ما لا يحبه الله .

زكى : تطهر من الذنوب والآثام .

يأتل : يقصر .

المحصنات : العفيفات .

الغافلات : النقيات القلوب .

لعنوا : طردوا من رحمة الله .

تستأنسوا : تستأذنوا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الشيطان عدو ظاهر العداوة للإنسان .

٢ - أن نتعلم أن الأخلاق الكريمة لا تكون إلا من النفوس الكبيرة .

٣ - أن نعرف استحقاق الخبز أهله والطيب أهله .

المحتوى التربوي :

يمضى السياق فيحذر من اتباع الشيطان ، وإنها لصورة مستكرة أن يخطو الشيطان ، فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان ، وأن يسلكوا غير طريقه المشؤوم ، صورة مستكرة ينفر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله ، ورسم هذه الصورة ، ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية . وإن الإنسان لضعيف ، معرض للتراعات ، عرضة للتلوث إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إلى الله ، ويسير على نهجه ، فنور الله الذى يشرق فى القلب يطهره ويزكّيه ، ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر ، والله يسمع ويعلم ، فيزكى من يستحق التزكية ، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد فهو سميع عليم .

وعلى ذكر التزكية والطهارة تأتي الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب ، فقد عرف أن مسطح بن أثانة كان ممن خاضوا فيه ، وهو قريبه ، وهو من فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه ، فألى على نفسه لا يتفع مسطحاً بنافعة أبداً ، فذكر قول الله أبا بكر والمؤمنين بأنهم يخاطبون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم ، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذي يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقه إن كانوا قد أخطؤوا وأساءوا .

وهنا تطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية التي تطهر بنور الله ، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ويرتفع على منطق البيئة ، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول : بلى ، والله إنني لأحب أن يغفر الله لي ، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان يتفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبداً ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبداً ، بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ويغسله من أوضار المعركة ؛ ليبقى أبداً نظيفاً طاهراً زكياً مشرقاً بالنور .

ذلك الغفران الذي يذكر الله المؤمنين به ؛ إنما لمن تاب عن خطيئة رمى المحصنات وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث ، وعن إصرار فلا ساحة ولا عفو ، ولو أفلتوا من الحد في الدنيا ؛ لأن الشهود لم يشهدوا ، فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة ، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود ، ويجسم التعبير جريمة رمى المحصنات المؤمنات ، وهن غافلات غارات تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الحسة ، ومن ثم يعاجل مقترفها باللعنة ، لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ويوم القيامة تتهم جوارحه بعضها بعضاً ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ، ويجزيهم الله الجزاء العدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « هذه الآية عامة في كل من يرمى محصنة ، وهي التي عرفت بالتقوى والبعد عن الحنا ... ، ومن يكون لسانه غير منضبط ، يرسل القول إرسالا بين المؤمنين في المحصنات ، فهي تعم كل من ليس عفيف اللسان ، يرمى النساء بالفحش لأدنى شبهة ، وإن الكامل يعف لسانه عن النطق بالهجر » .

ويختتم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة ، وحققه في واقع الناس ، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة ، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة ، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج ، وما كان يمكن أن تكون عائشة رضي الله عنها كما رموها ، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض ، والطيبون والطيبات بفطرتهم

وطبيعتهم لا يلتبس بهم شيء مما قيل ، ولهم مغفرة عما يقع منهم من أخطاء ورزق كريم ، دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم ، وقد جعل الله هذه المحنة معرضاً لتربية الجماعة المسلمة حتى تشف وترق وترتفع إلى آفاق النور .

والإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء مجتمعه النظيف - كما أسلفنا - إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية ، وهو لا يجارب الدوافع الفطرية ، ولكن ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة ، ومنهج التربية الإسلامية في هذه الناحية هو تضييق فرص الغواية وإبعاد عوامل الفتنة وأخذ الطريق على أسباب التهيج والإثارة .

ومن هنا يجعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها ، فلا يفاجأ الناس في بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول ، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت ، وعلى عورات أهلها وهم غافلون ، ذلك مع غض البصر من الرجال والنساء ، وعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات .

ولقد جعل الله للبيوت سكناً يقى إليها الناس ، فنسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم وحرماهم ، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنه وفي الوقت الذي يريدون ، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس ، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات ، وتلتقى بمفاتيح تثير الشهوات وتهدم الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة .

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالى ، أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول ، ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس ، وهو تعبير يوحى بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التى يجرى بها الطارق ، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسا به ، واستعداداً لاستقباله ، وهى لفظة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم ، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ، ويجرحوا أمام الطارقين في ليل أو نهار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - على المسلم أن يخالف طرق الشيطان المنحرفة عن الحق .
- ٢ - الله سبحانه وتعالى واسع الرحمة يقبل توبة التائبين إذا ندموا ، ولم يعودوا إلى معصية .
- ٣ - ضرورة التثبت والتأكد بالدليل القاطع من أية شائعة قبل تناقلها وروايتها .
- ٤ - على المسلم أن يستأذن قبل الدخول لمن أراد أن يدخل بيتاً .

معاني الكلمات :

أزكى : أظهر .

جناح : إثم .

متاع لكم : مصلحة لكم .

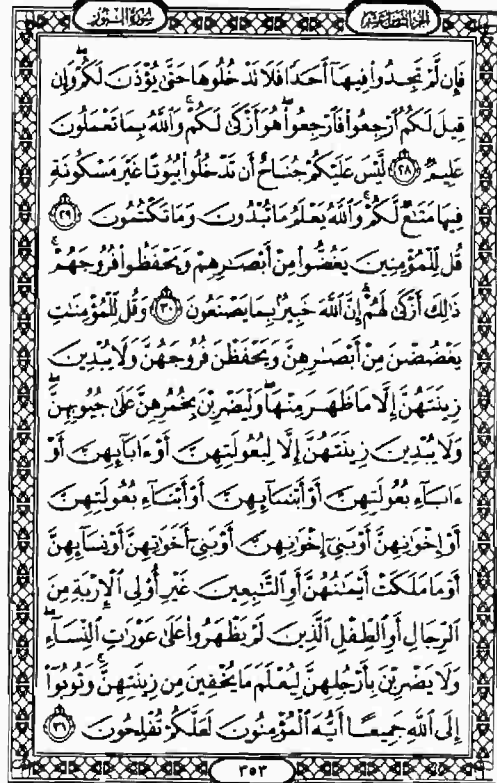
يفضوا : يكفوا .

وليضربن : وليغطين .

التابعين : أشباه الأقارب .

أولى الإربة : الذين يشتهون النساء .

يظهروا : يطلعوا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية .

- ١ - أن نتعلم آداب الاستئذان .
- ٢ - أن نتعرف على فوائد غض البصر .
- ٣ - أن نقف المرأة على حرمة إظهار زينتها لغير المحارم ، وتعرف درجات المحارم .

المحتوى التربوي :

يمضي السياق بعد الأمر بالاستئذان فيذكر أن البيوت إما أن يكون فيها أحد أو لا يكون ، فإن لم يكن فيها فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان ؛ لأنه لا دخول بغير إذن ، وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، فإنما هو طلب للإذن ، فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك ، ويجب الانصراف دون تكلؤ ولا انتظار .

وإن كانت الإجابة على إذنكم بأن ترجعوا فارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم أو النفرة منكم ، فللناس أسرارهم وأعدارهم ، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين ، والله هو المطلع على خفايا القلوب وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « إن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب : أولها : أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس . وثانيها : احترام الملكية ، سواء

أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه ، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجراً ، وثالثها : إزالة وحشة المفاجأة .

فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج في الدخول إليها في غير استئذان دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان متنتفة ، فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم ، ورقابته لكم في سركم وعلايتكم ، وفي هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، وامثالها لذلك الأدب العالى ، الذى يأخذها الله به في كتابه الذى يرسم للبشرية نهجها الكامل في كل اتجاه ، فالقرآن منهج حياة ، فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ويمنحها هذه العناية ، لأنه يعالج الحياة كليا وجزئيا ، والاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التى تجعل منها مثابة وسكنا ، ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغثة والتأذى بانكشاف العورات وهى عورات كثيرة تعنى غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة ، إنها ليست عورات البدن وحدها ؛ إنما تضاف إليها عورات الطعام وعورات اللباس وعورات الأثاث التى قد لا يجب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجميل وإعداد ، وهى عورات المشاعر والحالات النفسية ، فكم منا يجب أن يراه الناس وهو في حالة ضعف ييكى لانفعال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير أو يتوجع لآلم يخفيه عن الغرباء ؟ !

وبعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيوت - وهو إجراء وقائى في طريق تطهير المشاعر واتقاء أسباب الفتنة العابرة يأخذ على الفتنة الطريق كى لا تنطلق من عقالها ، بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة وبدافع الحركة المعبرة الداعية إلى الغواية ، فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تنهال فيه الشهوات في كل لحظة ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين ، فعمليات الاستشارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفئ ولا يرتوى ، وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستشارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سلبيا وبقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة .

وفي الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستشارة والغواية والفتنة من الجانبين ، فغض البصر من جانب الرجال أدب نفسى ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية ، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم ، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة وبقظة الرقابة ، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى ، ومن ثم يجمع بينها في آية واحدة بوصفها سببا ونتيجة أو خطوتين متواليتين .

وهذا أظهر للمشاعر وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيوانى الهابط ، وهو أظهر للجماعة وأصون لحرمتها وأعراضها وجوها الذى تنتفس فيه ، والله هو الذى يأخذهم بهذه الوقاية ، وهو العليم بتركيبهم النفسى وتكوينهم الفطرى ، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم .

وغض البصر للمؤمنات فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال ، ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب ، يلبى داعى الفطرة في جانب نظيف ، لا تحجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة .

والزينة حلال للمرأة لتلبية لفطرتها ، والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها ، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة ؛ يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه ، ويشارك معه في الاطلاع على بعضها المحارم المذكورة في الآية بعد ، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع ، وما ظهر من الزينة في الوجه واليدين فيجوز كشفه ، والمؤمنات قد أمرت بالخمار ، وهو غطاء الرأس والنحر والصدر ليدارى مفاتنهن ، فلا يعرضها للعيون الجائعة ، ولا حتى لنظرة الفجاءة التى ينفى المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولكنها قد تترك كمينا في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة ، والله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة أو الابتلاء في هذا النوع من البلاء .

وهذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة ، ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة ، فيستنى المحارم الذين لا تتوجه ميوهم عادة ولا تثور شهواتهم وهم : الآباء والأبناء ، وآباء الأزواج وأبناؤهم ، والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، كما يستنى النساء المؤمنات ، فأما غير المسلمات فلا ؛ لأنهن قد يصفن لأزواجهن وإخواتهن وأبناء ملتهن ، أما المسلمات فهن أمينات .

ويستنى كذلك ملك اليمين - قيل من الإناث فقط ، وقيل من الذكور كذلك - لأن الرقيق لا تمتد شهوته إلى سيدته والأول أولى ، ويستنى الذين لا يشتهون النساء لسبب من الأسباب كالجب والعتة والبلاهة والجنون وسائر ما يمنع الرجل أن تشتهى نفسه المرأة ، ويستنى الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس ، فإذا ميزوا وثار فيهم هذا الشعور ، فهم غير داخلين في هذا الاستثناء ، وهؤلاء كلهم عدا الأزواج ليس عليهم ولا على المرأة جناح أن يروا منها إلا ما تحت السرة إلى تحت الركبة لانتفاء الفتنة .

ولما كانت الوقاية هى المقصودة نهت الآية المؤمنات عن الحركات التى تعلن عن الزينة المستورة ، ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة ، وفي النهاية يرد القلوب كلها إلى الله ، ويفتح لها باب التوبة مما ألت به قبل نزول القرآن .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الرخصة في عدم الاستئذان من دخول البيوت والمحلات غير المسكونة للعبد فيها غرض .

٢ - وجوب غض البصر وحفظ الفرج .

٣ - وجوب ستر المرأة زينتها ومواضع ذلك ما عدا ما يتعذر ستره . للضرورة ، وذلك عدا الأزواج ، والمحارم .

٤ - وجوب التوجه من كل ذنب وعلى النور للحصول على الفلاح العاجل والآجل .

معانى الكلمات :

الأيامى : من لا زوج له .

عبادكم : المملوكين لكم .

الكتاب : عقد المكاتبة .

فتياتكم : إمائكم .

البغاء : الزنا .

تحصنا : تعففا .

درى : متلألئ .

ترفع : تعظم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نقف على الحلول الواقعية في مواجهة الميول الجنسية الفطرية .

٢ - انتداب المسلمين إلى التكافل في أمر الزواج حرصا على نظافة المجتمع .

٣ - أن نستشعر فيض النور الإلهي ، وعمل هذا النور .

المحتوى التربوى :

إلى هنا كان علاج المسألة علاجا نفسيا وقائيا ، ولكن ذلك الميل حقيقة واقعة ، لا بد من مواجهتها بحلول واقعية إيجابية ، هذه الحلول الواقعة هى تيسير الزواج والمعاونة عليه ، مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو إغلاقها نهائيا ، فالزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة ، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها ، والعقبة المالية هى العقبة الأولى فى طريق بناء البيوت وتحصين النفوس ، والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العقبة إلا وقد هيا لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال فى طريقهم إلى النكاح الحلال ، وطالب بإنكاح الأيامى وهم الذين لا أزواج لهم من الجنتين من الأحرار ، وأفرد الرقيق بالذكر ، وكلهم

ينقصهم المال ، فعلى الجماعة أن تعين الراغبين منهم في الزواج وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامى من الفاحشة ، وهو واجب ووسيلة الواجب واجبة .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقاً عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً ونساء ، فالرزق بيد الله ، وقد تكفل الله بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف .

وفى انتظار قيام الجماعة المسلمة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج ، والله لا يضيق على من ينبغى العفة ، وهو يعلم بنيته وصلاحه .

ولما كان وجود الرقيق ضرورة إذا ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين ، لما كان الأمر كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة ، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبه على حريته ، وذلك فى مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته ، وهذا يتمشى مع خط الإسلام الرئيسى فى الحرية ، وفى كرامة الإنسانية ، ومنذ المكاتبه يصبح مال الرقيق له وأجر عمله له ، ليوفى منه ما كاتب عليه ، ويجب له نصيب فى الزكاة ، ذلك على شرط أن يعلم المولى فى الرقيق خيراً ، والخير هو الإسلام أولاً ، ثم هو القدرة على الكسب فلا يتركه كلاً على الناس بعد تحرره .

ويمضى السياق فينهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر ، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث ، ووعد المكراهات بالمغفرة والرحمة بعد الإكراه الذى لا يد لهن فيه ، ويعقب السياق على هذا الشوط بصفة القرآن التى تناسب موضوعه وجوه ، فهو آيات مبينات لا تدع مجالاً للغموض والتأويل والانحراف عن المنهج القويم ، وهو عرض لمصائر الغابرين وكان مصيرهم النكال ، وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتحشى وتستقيم .

بهذا التعليم وهذا التهذيب وهذا التوجيه عالج الكيان البشرى حتى أشرق بالنور ، واستشرف النور الكبير الذى فى السموات والأرض ، وهو على استعداد لتلقى الفيض الشامل الغامر فى عالم كله إشراق وكله نور ، ويفيض النور الهادئ الوضىء نور رب العالمين ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب فى الحنايا والجوانح .

يقول ابن القيم فى كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية) : « سمي الله - سبحانه وتعالى - نفسه نوراً ، وجعل كتابة نورا ، ورسوله ﷺ نوراً ، ودينه نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه نوراً يتلألاً ، فهو منور السموات والأرض ، وهادى أهل السموات والأرض ،

فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض وهذا إنها هو فعله ، وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى .

ومثل نور الله سبحانه فى قلب عبده ، وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسول الله ﷺ ، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل ، فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار ، الهادى لنوره من يشاء ، والقابل : العبد المؤمن ، والمحلى : قلبه ، والحامل : همته وعزيمته وإرادته ، والمادة : قوله وعمله .

فمثل نوره تعالى فى قلب عبده المؤمن كمثل مصباح صافٍ لامع لمعان كوكب مشرق يتلأل كالدر ، ويستمد هذا المصباح وقوده من شجرة كثيرة البركات طيبة التربة والموقع ، وهى شجرة الزيتون المغروسة فى مكان معتدل متوسط فى الفضاء بحيث تفيد من الشمس فى جميع أجزاء النهار ، ويكاد زيت هذه الشجرة لشدة صفائه يضىء ولو لم تمسه نار ، فكيف إذا مسته نار ؟ كل هذه العوامل تزيد المصباح إضاءة ونوراً على نور ، والله يوفق من يشاء إلى اتباع نوره ، والإيمان به وبقرآنه ، وقد أتى - سبحانه - بهذه الأمثلة المحسوسة ؛ ليهل إدراك الأمور المعقولة ، وهو سبحانه وتعالى واسع العلم .

ويأتى السياق فيعقد صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا ، على طريقة التناسق القرآنية فى عرض المشاهد ذات الشكل التشابه أو المتقارب ، وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور فى المشكاة ، والقلوب المشرقة بالنور فى بيوت الله ، تلك البيوت أذن الله فى رفعها ، فهى مرفوعة قائمة ، وهى مطهرة رفيعة ، بتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق فى السموات والأرض ، وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السنى الوضىء ، وتتهياً بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ، وتنسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهية ، قلوب الرجال مع تعاطيهم التجارة ، لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة ، ويؤدون حق العباد فى الزكاة ، فهم يخشون يوماً تتقلب فيه القلوب فلا تثبت على شئ من الهول والكرب والاضطراب ، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ، ورجاؤهم لن يخيب فى فضل الله ، ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة) من فضله الذى لا حدود له ولا قيود .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - الحث على تيسير أسباب الزواج لما فيه من حكم سامية ، وغايات نبيلة ، وفوائد جليلة .
- ٢ - الإسلام لم يشرع الرق ، وإنما فتح أبواب التحرر أمام العبيد والإماء بما شرعه من المكاتبه .
- ٣ - الإيمان نور والكفر ظلمات ، والمؤمن دائماً بين الخوف والرجاء يخشى عقاب الله ويرجو رحمته .

ووجد الله الذى كفره به وجحدته ، وخاصمه وعاداه ، وجده هنالك ينتظره ، ولو وجد فى هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار .

وفى سرعة عاجلة تتناسق مع بغة المفاجأة يوفيه الله حسابه وهو سريع الحساب .

وفى المشهد الثانى : تطبق الظلمة بعد الالتئاع الكاذب ، ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى ، موج من فوقه موج من فوقه سحب ، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون ، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ، وخافة لا أمن فيها ولا قرار ، فنور الله هدى فى القلب ، وتفتح فى البصيرة ، واتصال فى الفطرة بنواميس الله فى السموات والأرض ، والتقاء بها على نور الله نور السموات والأرض ، فمن لم يتصل بهذا النور ، فهو فى ظلمة لا انكشاف لها ، وفى مخافة لا أمن فيها ، وفى ضلال لا رجعة منه ، ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ؛ لأنه عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان ، إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور .

قال ابن كثير : « هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول البقرة مثلين ناريا ومائيا ، وكما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى سورة الرعد مثلين : مائيا وناريا ، ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شىء فمثلهم كالسراب ، والثانى لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون ، فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدرك أين يذهب ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم ، قيل : فإلى أين تذهبون ؟ قال : لا أدري » .

ذلك مشهد الكفر والضللال والظلام فى عالم الناس ، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور فى الكون الفسيح ، مشهد يتمثل فيه الوجود كله ، بمن فيه وما فيه شاخصا يسبح لله : إنسه وجهه ، أملاكه وأفلاكه ، أحياءه وجماده ، وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه فى مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه ، فالإنسان ليس مفردا فى هذا الكون الفسيح ، فإن من حوله وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ، وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال ؛ إخوان له من خلق الله ، لهم طبائع شتى وصور شتى ، وأشكال شتى ، ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون فى الله ويتوجهون إليه ، ويسبحون بحمده ، والله مطلع على أفعالهم .

ويوجه القرآن الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله ، وإلى من حوله من خلق الله في السموات والأرض ، وهم يسبحون بحمده وتقواه ، ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه ، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه ؛ ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهى طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله ، والكل يعلم كيف يسبح ويصل ، والإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه ، مسبحا بحمده قائما بصلاته ، وإنه لذلك في فطرته ، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه ، وإن الإنسان ليدرك - حين يشف - هذا المشهد ممثلا في حسه كأنه يراه ، وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله ، وإنه ليشترك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه ، وكذلك كان محمد بن عبد الله - صلاة الله وسلامه عليه - إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه ، وكذلك كان داود عليه السلام يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير ، والله ملك السموات والأرض فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه ، وإلى الله المصير .

ومشهد آخر من مشاهد هذا الكون التى يمر عليها الناس غافلين ، وفيها متعة للنظر وعبرة للقلب ، ومجال للتأمل في صنع الله وآياته ، وفي دلائل النور والهدى والإيمان ، والمشهد يعرض على مهل وفي إطالة ، وتترك أجزاءه للتأمل قبل أن تلتقى وتتجمع ، كل أولئك لتؤدى الغرض من عرضها في لمس القلب وإيقاظه وبعثه إلى التأمل والعبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله ، فيد الله تزجى السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان ، ثم تؤلف بينه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض فإذا تفل خرج منه الماء ، والوابل الهاطل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة ، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله وفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، وبصرفه عمن يشاء ، وتكملة المشهد الضخم يكاد لمعان برق - يخطف الأبصار لشدة وقوته ، ذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير في الكون العريض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - المؤمن قلبه معلق بين الخوف والرجاء ، ورجاؤه لا يخيب في فضل الله .

٢ - من لم يتصل قلبه بنور الله تعالى فهو في ظلمه لا انكشاف لها .

٣ - الإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

معاني الكلمات :

مبينات : واضحات .

يتولى : يعرض .

مذعنين : راضين .

مرض : نفاق .

ارتابوا : شكوا في الدين .

يحيف : يظلم .

جهد أيمانهم : أغلظ الأيمان .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن في القرآن ما يهدي إلى الحق .
- ٢ - أن نستشعر خطورة النفاق والمنافقين .
- ٣ - أن نعلم أن المؤمنين يتتهجون منهج الله ولا يحيدون عنه .

المحتوى التربوي :

يتابع السياق لفت الانتباه في مشاهد الكون ، مشهد الليل والنهار ، والتأمل في قلب الليل والنهار بهذا النظام الذي لا يختل ولا يفتر يوقظ في القلب الحساسية ، والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد التي ذهبت الألفة بوقعها المثير ؛ ليواجه القلب هذا الكون دائما بحس جديد ، وانفعال جديد .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن يجدد حسنا الخامد ويوقظ حواسنا الملول ، ويلمس قلبنا البارد ، ويشير وجداننا الكليل ، لترتاد هذا الكون دائما كما ارتدناه أول مرة ، نقف أمام كل ظاهرة نتأملها ، ونسألها عما وراءها من سر دفين ، ومن سحر مكنون ، ونرقب يد الله تفعل فعلها في كل شيء من حولنا ، وتدبر حكمته في صنعه ، ونعتبر بآياته المبثوثة في تضاعيف الوجود ، والله

سبحانه ، يريد أن يمن علينا بأن يهبنا الوجود مرة كلما نظرنا إلى إحدى ظواهره ، فاستعدنا نعمة الإحساس بها كأننا نراها أول مرة ، فنظل نجد الكون مرات لا تحصى ، وكأننا في كل مرة نوهبه من جديد ، ونستمع به من جديد .

ويمضي السياق في عرض مشاهد الكون ، فيعرض نشأة الحياة من أصل واحد وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة ؛ فالله خلق الأحياء كلها من الماء فهي ذات أصل واحد ثم هي - كما ترى العين - متنوعة الأشكال ، منها الزواحف تمشي على بطنها ، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين ، ومنها الحيوان يدب على أربع ، كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته لا عن فلتة ولا مصادفة ، فالله قادر على خلق ما يشاء غير مقيد بشكل ولا هيئة ، فكل ما يجري في الكون تحت قدرته .

ويعود السياق إلى موضوع الآداب التي يربى عليها القرآن الجماعة المسلمة ، لتظهر قلوبها وتشرق وتتصل بنور الله في السموات والأرض ، فيتحدث عن المنافقين ، الذين لا يتفعلون بآيات الله المبينات ولا يهتدون ، فهم يظهرون الإسلام ولكنهم لا يتأدبون بأدب المؤمنين في طاعة رسول الله ﷺ ، وفي الرضا بحكمه والطمأنينة إليه .

فآيات الله مبينة كاشفة تخلو نور الله ، وتكشف عن ينابيع هذه ، وتحدد الخير والشر والطيب والخبيث والله هو الذي يهدي من نفسه إلى طريق الرشاد ، ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الطريق من الناس فريق المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام .

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك والإسلام عقيدة متحركة لا تطبق السلبية ، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ، ولترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع ، ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون ، مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصل » .

وهؤلاء كانوا يقولون الإيمان بأفواههم ، ولكن مدلوله لا يتحقق في سلوكهم ، وما هذا بفعل أهل الإيمان ، ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ على شريعة الله التي جاء بها ، ولقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن ، وهذا الفريق الذي كان يدعى الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوى ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان ، والرضا بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق ، وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله ، وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سعي الأدب .

ومن ثم يعقب على فعلة هؤلاء المنافقين بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ، وتتعجب من ربيتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب ، والسؤال الأول للإثبات ، فمرض القلب جديرٌ بأن ينشئ مثل هذا الأثر ، وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة ، والسؤال الثاني للتعجب ، فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله ؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل ، على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين ؟ والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب ، فهل هم يخافون أن يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه ؟ وحكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ؛ لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ، وكل خلقه أمامه سواء .

ومن أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، أم المؤمنون حقاً فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله ، ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم هو القول الذي يليق بالمؤمنين ، وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور ، هو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ، وأولئك هم المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلا بد أن يكونوا خيراً ممن يدبر أمورهم ، وهم المفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد لا عوج فيه ولا التواء ، ومن يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك ما نهى عنه وخاف الله فيما مضى من ذنوبه ، واتقاه فيما يستقبل ، وهؤلاء هم الذين فازوا بكل خير ، وآمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

يقول صاحب الظلال : « وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به وشعوره بهيئته ، كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه ، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله ولا تستمد منها ، هي ذلة يأبأها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ويستعل عليها ضميره ، فالمؤمن الحق لا يحنى رأسه إلا لله الواحد القهار » .

وبعد هذه المقابلة بين حسن أدب المؤمنين وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان ، وما هم بمؤمنين يعود السياق لاستكمال الحديث عن هؤلاء المنافقين ، فقد كانوا يقسمون لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، فهو يرد عليهم متهمين لا تحلفوا فطاعتكم معروفة ، فالله يعلم أنكم لا تخرجون ولا تطيعون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - شريعة الله واضحة مضبوطة ، لا يخشى صاحب الحق منها على حقه ، ولا يلتبس فيها حلال بحرام .

٢ - الإيمان متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك والإسلام عقيدة متحركة لا تطبيق السلبية .

٣ - السمع والطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله من صفات المؤمنين الصادقين .

معاني الكلمات :

تولوا : أعرضوا .

حل : ما أمر به بتبليغ الرسالة .

حملتم : ما أمرتم به من الطاعة والانقياد .

ليستخلفنهم : ليجعلنهم أئمة الناس .

ليمكنن لهم دينهم : يجعله منتشرًا بين

الناس .

معجزين : فائتين من عذاب الله .

جناح : حرج .

طوافون : جمع طواف ، وهو الذى يدور

على أهل البيت للخدمة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نقف على حقيقة الإيمان الذى يؤهل للاستخلاف ، ويحقق وعد الله للمؤمنين .

٢ - أن نستشعر خطورة الوعيد الشديد لمن أنعم الله بنعمة السيادة والكرامة فلم يشكرها .

٣ - أن نعلم أن الإسلام منهج حياة يتناول كل صغيرة وكبيرة فيها .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن المنافقين فيأمرهم بالطاعة ، الطاعة الحقيقية لا طاعتهم تلك المعروفة المفهومة ، فإن تعرضوا أو تنافقوا ولا تنفذوا فما على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد قام به وأداه ، وعليكم أن تطيعوا وتخلصوا ، وقد نكصتم عنه ولم تؤدوه ، وإن تطيعوه تكون الهداية إلى المنهج القويم ، والرسول ليس مسؤولاً عن إيمانكم وليس مقصراً إن توليتم ، إنما أنتم المسؤولون المعاقبون ، فما عليه إلا البلاغ المبين .

ويلتفت السياق إلى المؤمنين المطيعين ، يبين جزاء الطاعة المخلصة والإيمان العامل فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير ، ويبين لهم الوعد بالاستخلاف ، وأن يمكن لهم دينهم الذى

ارتضى لهم ، وأن يدهم من بعد خوفهم أمنا ، ذلك وعد الله ، ووعد الله واقع ، ووعد الله حق ، ولن يخلف الله وعده ، فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

يقول صاحب الظلال : « إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله ، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ، لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله ، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ، ذلك الإيمان منهج حياة كامل يتضمن إعداد العدة والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض .. أمانة الاستخلاف ، فحقيقة الاستخلاف ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم ، إنها هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء ، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ، وتصل على طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض اللاتق بخليقة أكرمها الله ، فالاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد ، وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . »

ولقد كانوا خائفين لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة ، أما من كفر بعد ذلك فهو الخارجون على شرط الله ووعد الله وعهد الله .

ويعقب الله على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبالا بحسب الرسول ﷺ وأمته حساباً لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم ، فهذه هي العدة .. الاتصال بالله ، وتقويم القلب بإقامة الصلاة والاستعلاء على الشح بإيثار الزكاة ، وطاعة الرسول والرضا بحكمه ، ولا شك من فعل ذلك فأولئك سيرحمهم الله ، فإذا استقمتم على النهج فلا عليكم من قوة الكافرين فما هم بمعجزين في الأرض ، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في أى طريق وأنتم أقوىاء بإيمانكم ، ومأواهم في الدار الآخرة النار وبئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار بئس المهاد .

ويمضى السياق ليعلن أن الإسلام منهج حياة كامل ، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها وفي كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفي كل حركاتها وسكناتها ، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ، وينسق بينها جميعاً ، ويتجه بها إلى الله في النهاية ، وها هو السياق يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت ، ولقد سبقت أحكام الاستئذان على البيوت ، فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا

استئذان ، إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها ، هذه الأوقات هي : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج ، ووقت الظهر عند القيلولة ، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة ، ويعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ، ويرتدون ثياب الليل ، وسميها عورات لانكشاف العورات فيها .

قال القاسمي : « في الآية إقرار ما جرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ، ووقت الظهر ، وقد يستدل بها على أن كشف العورة في الخلوة جائز » .

وقال الرازي : « الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين أحدهما يقول : ﴿ ثَلَاثَ عَوَرَاتٍ لَكُمْ ﴾ والثاني : بالتنبيه على الفريق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ما عداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف في هذه الأوقات الثلاثة ، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها ، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات » .

وفي هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الصغار والمميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهلهم ، وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة وأن الصغار قبل البلوغ لا يتنبهون لهذه المناظر ، بينما يقرر النفسيون اليوم بعد تقدم العلوم النفسية - أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها ، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذا الآداب ، وهو يريد أن يبنى أمة سليمة الأعصاب سليمة الصدور ، مهذبة المشاعر ، طاهرة القلوب ، نظيفة التصورات ، ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها ؛ لأنها مظنة انكشاف العورات ، ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعا للخرج ، فهم كثير الدخول والخروج على أهلهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة ، وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله .

٢ - الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد .

٣ - ضرورة استئذان الخدم والأطفال قبل الدخول على الكبار في أوقات الخلوات والراحات .

معاني الكلمات :

القواعد : العجائز .

متبرجات بزينة : مظهرات للزينة الخفية .

حرج : إثم .

ما ملكتم مفاتيحه : ما كان في تصرفكم .

جميعا أو اشتاتا : مجتمعين أو متفرقين .

مباركة : بالأجر والثواب .

طيبة : حسنة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعلم تنظيم العلاقات بين الأسرة وأفرادها حين يدرك الصغار سن البلوغ .

٢ - أن نتعرف على تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء .

٣ - أن نستشعر قوة ارتباط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة والكبيرة .

المحتوى التربوي :

يتابع السياق حديثه عن العلاقات الأسرية من حيث الاستئذان ، فبينه حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب الذين يجب أن يستأذنوا في كل وقت حسب النص العام ، الذي مضت به آية الاستئذان، ويعقب على الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ؛ لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر ، وما يصلحها من الآداب ، ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب .

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعا لإثارة الفتن والشهوات ، فعاد هنا يستثنى من النساء القواعد اللواتي فرغت نفوسهن من معاشررة الرجال ، وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات ، فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية على ألا تتكشف

عوراتهن ولا يكشفن عن زينة ، وخير هن أن يبقين كاسيات بياهن الخارجية الفضفاضة ، وسمى هذا استعفافا أى طلبا للعفة وإثارا لها لما بين التبرج والفتنة من صلة ، وبين التحجب والعفة من صلة ، وذلك حسب نظرية الإسلام فى أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية ، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس ، والله يسمع ويعلم ويطلع على ما يقوله اللسان ، وما يوسوس فى الجنان والأمر هنا أمر نية وحساسية فى الضمير .

يقول الإمام محمد أبو زهرة على هذه الآية : « هى للأهل الذين يسكنون فى دار واحدة ، وهم مختلطون يدخل بعضهم بيوت البيوتة من غير حرج أو استئذان ، فالآية تعلم الناس أدب الاختلاط ، سواء أكانوا ذوى أرحام أم لم يكونوا ... » .

ثم مضى فى تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء ، فقد روى أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة دون استئذان ، ويستصحبون معهم العمى والعرج والمرضى ليطعموا الفقراء منهم ، فخرجوا أن يطعموا ، وتخرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن ، فقد كانت حساسيتهم مرهفة ، فكانوا يحذرون دائما أن يقعوا فيما نهى الله عنه ، ويتخرجون أن يلوموا بالمحذور ولو من بعيد ، فأنزل الله هذه الآية ، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج وعن القريب أن يأكل من بيت قريبة ، وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج ، وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به ، استنادا إلى القواعد العامة فى أنه لا ضرر ولا ضرار ، وإلى أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس .

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلاحظ فيها دقة الأداء اللفظى والترتيب الموضوعى ، والصياغة التى لا تدع مجالا للشك والغموض ، كما نلمح فيها ترتيب القرابات ، فهى تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم ، بل تقول : ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، فدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت لزوجته ، وتليها بيوت الآباء فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات ، ويضاف إلى هذه القرابات الحازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتيحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه ويلحق بها بيوت الأصدقاء ، ليلحق صلتهم بصلة القرابة عند عدم التأذى والضرر ، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان .

فإذا انتهى من بيان البيوت التى يجوز الأكل منها ، بين الحالة التى يجوز عليها الأكل ، فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام ، فرفع الله هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد ، وأباح أن يأكلوا أفراداً أو جماعات .

فإذا انتهى من بيان الحالة التي يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها حتى إذا كانت خالية من أفرادها ، وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية ، فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه ، والتحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله تحمل ذلك الروح ، وتفوح بذلك العطر ، وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وهكذا ترتبط القلوب المؤمنة بربهم في الصغيرة والكبيرة ، والله يبين هذه الآيات لعلكم تعقلون ، وتدركون ما في المنهج الإلهي من حكمة وتقدير .

قال القاسمي : « قيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك ، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج ، وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، فقيل لهم : ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم معنى عليكم ، وعلى مَنْ في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك .

وقيل كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم ، لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم ؛ ولأن الأعمى بها سبقت يده إلى ما سبقت عن أكيله إليه وهو يشعر ، والأعرج يتفسح في مجلسه ، ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جلسيه ، والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فكانوا يتخرجون . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تخرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكره ، ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفى الحرج عنه كله ، ولا يستلزم نفى الحرج عن مؤكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيله الصحيح في غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه ، بل يراد حضوره مع الصحيح على مائدة ، واختصاصه بقصعة على حدة ، وما أحسن عادة الأفراد بالقصاع مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء في الاجتماع » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - النساء العجائز اللاتي لا يطعم فيهن الرجال لكبرهن لا يجب عليهن المبالغة في التستر ، والتستر وهو خير لهن .

٢ - إباحة الأكل من بيوت الأقارب للمؤانسة والمباسة التي تكون في العادة بينهم .

٣ - إفشاء السلام من الآداب الإسلامية العظيمة التي تشيع المحبة بين الناس .

معانى الكلمات :

آمنوا : صدقوا بقلوبهم .

جامع : مهم .

دعاء الرسول : نداءكم له .

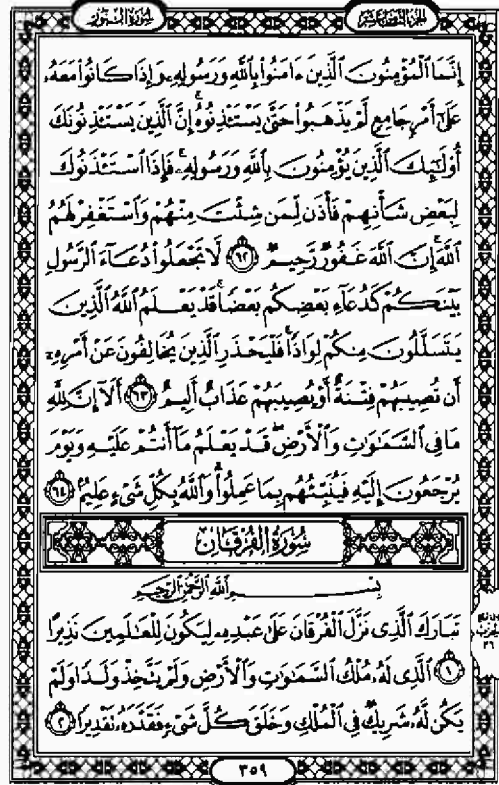
يتسللون : ينصرفون خفية .

لو اذا : يستر بعضهم بعضا .

يخالفون : يعرضون .

تبارك : تعالت صفات الله .

قدّره : هياه لما يصلح له .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على تنظيم العلاقات بين أسرة المسلمين وقائدها محمد ﷺ .

٢ - أن نعلم عاقبة المنافقين الذين يتبعون نهجا غير نهج الإسلام .

٣ - أن نتعرف على مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته .

المحتوى التربوي :

ينتقل السياق من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة أسرة المسلمين ورئيسها وقائدها محمد رسول الله ﷺ ، وإلى آداب المسلمين في مجلس الرسول ، وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها ، هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرهم وعواطفهم وأعماق ضميرهم ، ثم تستقر في حياتهم فتصبح تقليداً متبعاً وقانوناً نافذاً ، وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها ، فالؤمنون يؤمنون بالله ورسوله لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم - ولا يطيعون الله ورسوله ، وإذا كانوا معه على الأمر الجامع الهم الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه ،

لرأى أو حزب أو عمل من الأعمال العامة ، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كى لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ، فلهم من إيمانهم ومن أديهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعى تجمعها له ، ومع هذا فالقرآن يدع الرأى فى الإذن أو عدمه للرسول ﷺ رئيس الجماعة ، بعد أن يبيح له حرية الإذن ، يدع له الرأى فإن شاء أذن وإن شاء لم بأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ، ويستبقى حرمة التقدير لقائد الجماعة ؛ ليوازن بين المصلحة فى الانصراف ، ويترك له الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة التنظيمية يديرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة وعدم الانصراف هو الأولى ، وأن الاستئذان والذهاب فيها تقصير أو قصور يقتضى استغفار النبى ﷺ للمعتذرين ، وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن ، وله مندوحة لقهر العذر الذى يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت السياق إلى توفير الرسول ﷺ عند الاستئذان ، وفى كل الأحوال ، فلا يدعى باسمه : يا محمد ، أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا ، إنها يدعى بشريف الله له وتكريمه : يا نبى الله ، يا رسول الله ، فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر توفير كل كلمة منه وكل توجيه ، وهى لفظة ضرورية ، فلا بد للمربى من وقار ، ولا بد للقائد من هبة ، وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لنا ، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض ، يجب أن تبقى منزلته فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قرارة شعورهم ، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض ، فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم ، وهو تعبير بصور حركة التخل والتسلل يحذر من المجلس ، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها فى النفوس ، وإنه لتحذير مرهوب وتهديد رعب ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ، ليحذروا أن تصيبهم فنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وتشتك فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ، فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر ، وهى فترة شقاء للجميع فى الدين أو فى الآخرة جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذى ارتضاه للحياة .

ويختتم هذا التحذير ، ويختتم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوى عليه وتخفيه ، وهكذا تختتم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ، وتذكيرها بخشيته وتقواه ، فهذا هو الضمان الأخير ، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي ، وهذه الأخلاق والآداب التي فرضها الله في هذه السورة ، وجعلها كلها سواء .

سورة الفرقان

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية وتطمين له ، وتقوية وهو يواجه مشركى قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعتهم معه ، وجداهم بالباطل ، ووقوفهم في وجه الهدى وصددهم عنه .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحده على تنزيل هذا القرآن من عنده ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا ، ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير ، وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتناول المتناولون ، والتبادل تفاعل من البركة يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا .

يقول صاحب الظلال : « وساء فرقانا بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد ، فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها في صورتها المستقرة في الضمير ، وصورتها المثلة في الواقع » .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده ، وأنه رسالة للعالمين وطبيعة هذه الرسالة طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ، ونهايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج على نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزل به صاحب السيطرة المطلقة على السموات والأرض ، فهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج إلى ولد أو شريك في الملك ، والكل شاهد وعلى وحدة التصميم ووحدة الناموس ووحدة التصريف ، وقد قدر سبحانه قدر كل شيء وحجمه وشكله ، وقد قدر وظيفته وعمله ، وقد قدر زمان ومكانه ، وقد تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - وجوب طاعة الرسول ﷺ ، وحرمة مخالفة أمره ونهيه ، وتوقيفه في حياته وبعد مماته .
- ٢ - المتجرى على الاستهانة بسنة رسول الله ﷺ يخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة .
- ٣ - ضرورة التفكير والبحث في مختلف العلوم للتعرف على حكمة الله تعالى وبديع صنعه .